إضاءة

التستّر بالسرد بدل الإفصاح عن حقيقة المشاعر

ندرة الذاتيّ في سيَر القدماء

بعكس يومنا هذا، الذي نميل فيه إلى التنقيب في أدقّ خصوصيّات مشاهير الكتابة والفن، لم يكن كتّاب السيَر في العصور الوسطى يولون أهمية كبرى للحياة العائلية والمشاعر والميول الشخصية. سيرتا أسامة بن منقذ وأبو شامة الدمشقي تشكلان استثناءً

ناصر الرباط

أصبح من الطبيعي أن ينشر المشاهير سِيَرهم الذاتية. يلقى هذا النوع من الكتب، اليوم، إقبالاً واضحاً؛ فهو يكشف للقرّاء كلّ ما يتعلّق بخصوصيّات صاحب السيرة: نفسيّته وعُقده وأمياله، طفولته ومعارفه وعلاقاته، نجاحاته وفشله. هكذا، صرنا اليوم أكثر إدراكاً لأهمية الخلفية، وظروف النشأة، والحياة العملية والصدمات، في تشكيل حياة الفرد، وفي صوغ قراراته وطبع نتاجه بطابع يميّزه عن غيره ويمنحه الألق الذي يجذبنا إليه. كما صرنا أقلّ تحرّجاً من البحث في حياة الآخرين، حتّى في أدقّ خصوصيّاتها، اعتقاداً منّا بأن ذلك يقرّبنا أكثر من دواخلهم، ويجعلنا نفهم فهماً أعمق لتصرفاتهم وردود أفعالهم ودوافعها المخفية، ما يسمح لنا بالحكم على نوعية وجودة إنتاجهم الأدبي أو الفني حكماً أكثر واقعية وأكثر ارتباطاً بسياقه.

كانت الأمور مختلفة طبعاً في الماضي؛ فلا الدافع الشخصي ولا الميل الاجتماعي إلى التسجيل وحفظ الذكرى، ولا توافر أدوات التسجيل، كان على ما هو عليه اليوم.

من مدرسة أم السلطان شعبان، ذات الطراز المملوكي، القاهرة (Getty)

وبالتالي، فإنّ ما خلّفه لنا أبناء القرون الوسطى من ذكريات وتراجم مختلفة جداً عمّا نعرف وننتظر في مجال السيرة الذاتية، وأقل كثيراً ممّا نحبّ ونرغب، وأصعب علينا فهماً وشرحاً وتعليلاً. ليس معنى ذلك أن أبناء القرون الوسطى لم يكن لديهم اهتمام بتسجيل سِيَر حياتهم أو الأحداث التي مرّت بهم، ولكن دوافع التسجيل ومجاله ومداه كانت مختلفة عما عهدناه في حياتنا المعاصرة. فكتّاب السيرة الذاتية القروسطيون كانت لهم أهداف أخرى من توثيق حياتهم، ومناهج مختلفة في إيراد أخبارها؛ أهداف أكثر ارتباطاً بشروط المعيشة والعمل والصعود في المجتمع وأقل ارتباطاً بالتعبير والتذكّر والفضفضة. وكانت لديهم مفاهيم مختلفة عن الشخصية الفردية وسلطة الكاتب وحقوق الجماعة والحياة والفناء والتذكر، وهي كلّها مفاهيم شهدت تجولاً جذرياً في مدلولاتها في العصر الحديث.

تنطبق هذه الملاحظة على الغرب المسيحي والشرق المسلم في آن، حيث تشارك كتاب الطرفين في محاولة إسدال ستار من الخفر على التفاصيل الشخصية عبر بعض أدوات الصنعة الكتابية. ولكنّ كتّاب السيرة المسلمين القروسطيين انفردوا ببعض الخصائص النابعة من دينهم وتراثهم الأدبي ومواضعاتهم الاجتماعية المميزة وأدوات صنعتهم الكتابية. بشكل عام، تميّز كتاب السيرة المسلمون القروسطيون بالإطار القدريّ المؤمن بالقضاء لسردهم، مع قليل اهتمام بالبحث عن خلفيات الحوادث التي يروونها. فسيَرهم مقولبة وجامدة إلى حدّ كبير، تحتوي القليل من المعلومات الشخصية والكثير ممّا يمكن أن نسمّيه السجل العام للشخصية، وهي تفصح عن عقليّة قنعت من الإخبار بالظواهر وعفّت عن النبش والتمحيص والتساؤل. لا يعني هذا الحكم العام، والمعمّم بحقيقة الأمر، أن كتّاب السيرة المسلمين القروسطيين لم يعتقدوا بوجود علاقة أو علاقات بين خلفيّة الكاتب وبين إنتاجه المكتوب. على العكس تماماً. ولكنّهم نظروا إلى هذه العلاقة من منظور الخلفيّة العائلية، والمذهب، والدراسة، والشيوخ الذين درس على أيديهم الكاتب المعنيّ، والوظائف التي تقلّدها، والأعيان الذين خدمهم، قبل الوصول إلى إنتاجه الفكري والعلمي، من دون أخذ الطباع والمشاعر والخيارات الشخصية بعين الاعتبار.

وبمعنى آخر، فإن إنتاج الكاتب كان من وجهة نظرهم محكوماً بمحيطه الثقافي والعلمي والمهني، مع قليل تأثير لشخصيته وطباعه وميوله. فسمعة الكاتب وشهرته اعتمدت أساساً على التزامه بقواعد الطبقة أو الجماعة أو المهنة التي ينتمي إليها، وعلى كيفية صعوده ضمنها وحفاظه على أصولها واحترامه مواضعاتها. هذا هو على الأقلّ الانطباع العام الذي نجده عند قراءتنا للسير الذاتية القروسطية، مثل سيرة ابن خلدون (1332-1406) في كتاب «التعريف»، الذي أرّخ فيه لحياته العلمية والوظيفية وللقاءاته بكبار عصره؛ وسيرة السيوطي (1445 - 1505) في كتاب «التحدّث بنعمة الله»، حيث أورد مسيرته العلمية وترجمة أبيه وسرد مؤلفاته وشيوخه ومنجزاته، ومدح تفوّقه في العلم. فنحن لا نجد في مثل هذه السير إلا القليل النادر من الإشارات إلى الحياة العائلية، أو إلى أمّهات وأخوات وزوجات وبنات وسراري كاتب السيرة (ابن خلدون يورد خبر غرق أسرته في ميناء الإسكندرية وموت أفرادها أجمعين في خبر عابر واحد). ولا نصادف عموماً إلاّ بعض الملاحظات العابرة عن السلوك الشخصي. فقد استعمل كتّاب السير أطراً محدّدة، ضمنت لهم التستّر بالسرد على الإفصاح عن حقيقة مشاعرهم، على الرغم من أنهم أحياناً تجاوزوا هذه القواعد الكتابية والسردية وسمحوا لعواطفهم وآرائهم بالظهور، عبر إيرادهم لحوادث معينة أو تعليقهم على رأي ما.

> سمعة الكاتب وشهرته اعتمدت على التزامه بقواعد الطبقة
>
> في مثال نادر، يورد ابن خلدون في «التعريف» غرق عائلته

من هذا المنطلق، فإن أي سيرة لشخصية قروسطية تتعرّض لبعض مظاهر حياتها الشخصية جديرةٌ بالاهتمام والاحتفال، لندرتها واختلافها عن مئات السير التي تقتصر على النواحي المدنية والمهنية العامة، والتي تقدم لنا صوراً باردة، محايدة، ووحيدة البعد لأصحابها. أما هذه السير غير العادية والنادرة - كسيرة الفارس الشيزري أسامة بن منقذ، في «كتاب الاعتبار»، وسيرة المؤرخ الدمشقي أبي شامة المعروفة بـ«الذيل على الروضتين»، اللتين تتطرقان للحياة الخاصة لكاتبيهما - فهي تقدم لنا صوراً معبّرة وحسّاسة عن الكثير من الأشخاص المهمّين في حياة الكاتب، من أهله ومعارفه وأصحابه. فالأول، أسامة بن المنقذ، كان سليل عائلة نبيلة سيطرت على قلعة شيزر ومحيطها شمال سورية، وعمل في بلاطي السلطانين الكبيرين اللذين عاصرهما، نور الدين وصلاح الدين، وخدم في جيوشهما، وشهد العديد من المعارك مع الصليبيين، وصاحب بعضهم ونقل لنا نتفاً من ملاحظاته عنهم.

(مؤرّخ معماري مقيم في الولايات المتحدة)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

ما كان سيبقى مجهولاً

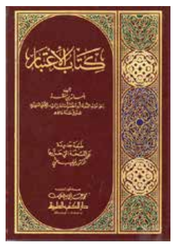

تضيء سيرتا أسامة بن منقذ في «كتاب الاعتبار»، والمؤرخ الدمشقي أبي شامة في «الذيل على الروضتين» - وإن كانتا لا تكفيان لتكوين صورة كاملة عنهما- بعض الجوانب المؤثرة عن علاقتيهما بمحيطهما، وتسمحان بالولوج قليلاً إلى حياتهما الخاصة والعائلية. إنهما تفتحان لنا نوافذ على مشاعر، كانت ستبقى مجهولة، تضيء على سيرة هذين الفريدين الفذين إبعاداً إنسانية تجعلنا نشعر بهما، على الرغم من بعد الزمن الذي يفصلنا.

قصائد

أذكارُ أسفارٍ على الشاطئ الأطلسي

كأنه جبل بُدّدتْ أمانيه

عاطف الشاعر

إسطنبول.. أمسّ في كلّ يوم

اسمٌ خَطَّ أفقاً
قبةٌ من نحت السماء
نوارسُ تحلّقُ حول موجةٍ واحدة
زائرون من بعيد يطيلون النظر في البحر
سمكةٌ وحيدةٌ تسيرُ بين القوافل
وطفلٌ ينتظرُ ظهورها مرةً أخرى ليصوّرها
سماءٌ كلّما أطلتَ النظرَ إليها تمادتْ في تمدّدها.

شابٌ يهمسُ في أذن فتاةٍ
يحاولُ إقناعها بحبّه، ربما عبثاً.
وجهٌ تتحرّشُ به الشمس
وعيونٌ تريدُ تأبيد اللحظات،
شجرةٌ وحيدةٌ إذا ما نظرتَ شرقاً
وغابةٌ كثيفةٌ إذا ما نظرتَ شمالاً
عجوزٌ تشير لك بيدها: «افتح هذه الزجاجة»
تفتحها وينسكبُ الماءُ على يديك
تقولُ: أسفةٌ جداً، تقولُ: لا عليكِ
كلّنا في الماء سواء.

تُكملُ الحياةُ في نفسك المشهد:
هناك ما يشبهُ الحبّ القديم في كلّ ما ترى
الجسرُ الذهبي وما يتراءى من هلالٍ كمنجلٍ نحاسيّ...

دمت إسطنبول
ودامت أوهام القلب، مرآةَ انكسار الأشياء.

الليل حافٍ في مراكش

القمرُ بيضةُ طائرٍ
وأنا مثله
أجازفُ بالنظر.

كلّ يبحثُ عن نفسٍ له في مراكش
السماءُ جيوبٌ ممزّقة
يتساقطُ من شجرِ غيومها مطرٌ خفيف،
مثل رحيقِ البرتقال.

(مع هدوء الأقدار في مراكش
أحسبُ أنّي من ورقةِ الانفجار العظيم)

يتشابكُ الكونُ في خيوطِ اليد
تتلوى الدهشةُ سؤالاً:
لماذا تبدو «الكتوبية» العمود الفقري للسماء؟

(من أثقال الأرض في عينيّ
أكادُ أبكي)

أُدقّقُ في سحنة الحجارة
وأسمعُ تهليل المُرابطين القدامى.
يكادُ كلّ شيء يكتمل
مع حفيف الأشجارِ
ورشقات الضوء.

وداعاً لكلّ ما هنا
من خرابٍ
ومن حبّ.

قبس من الصويرة

حجارةٌ خصبة
أذكارُ أسفارٍ
على الشاطئ الأطلسي
جنوحُ الهواءِ
ونوارس البحر تحلّق مع ارتفاع الدم
والمارةُ في طريقهم نحو ضفة الشمس
وبائعو السّمك يفرطون عقد الأمواج
الكونُ يتسربلُ في وحشة القادم مع الليل
كل هذهِ
أثقالٌ
على الشاطئ الأطلسي
أتكئُ عليها الآن.

كنيزُ هو الليل

ثمّة حكمةٌ في أسارير الليل
لكنْ لا تُرى
الظلامُ يصمدُ أمامَ معارك القلب
كان تُعدّل نجمة ضوءها ولا تحترق
ويعود بحرٌ للهدوء دون شعور أحد
كأن ينبحَ كلبٌ بسرّه خوفاً من حلمِ الذئب
كأنّي أحاولُ فهم شيء ما يخصُّ غيري
ولا أرى فيما تساقط من ظلامٍ
سوى أرواحٍ تتجمعُ في الدرب.

يسيرُ الليلُ كأنهُ جبل بُدّدتْ أمانيه
كصبيٍّ يتسكع في مآلات الأحلام
الأضواءُ تركضُ مع النظرات
وتغرق في الماء

تغفو الأشجار على غناء الطير
والقلبُ يتصرّفُ كقارةٍ بلا حدود.

لا أدري إن كان في الليل
أثرُ نهارٍ
أم هي الحياة منفرطة أزرارها...

قلبي يؤوّلُ الظلام،
مخزنَ الضوء الحق.

(شاعر وناقد فلسطيني مقيم في لندن)

عدنان تورابي، الوان زيتية على قماش، 1988

معرض

هاشمي عامر تخطيطات وألوان مائية من الصين

كتابة الرحلة بالرسم

ترصد أعمال المعرض، المتواصل في الجزائر العاصمة حتى السادس من الشهر المقبل، مناظر من طبيعة الصين وعمرانها، ومشاهد من الحياة اليومية فيها

الجزائر ـ العربي الجديد

في 2012، زار الفنّان التشكيلي الجزائري، هاشمي عامر، الصين؛ حيث شارك في ورشاتٍ فنّية مع عددٍ من التشكيليّين العرب. لكن تلك لم تكن زيارته الأولى إلى هذا البلد؛ ففي منتصف الخمسينيات، قضى ثلاث سنوات في بكين التي درس في أكاديميتها المركزية للفنون التطبيقية بين سنتَي 1985 و1988.

وفي معرضه الذي افتُتح السبت الماضي في «رواق باية» بـ«قصر الثقافة مفدي زكريا» في الجزائر العاصمة ويستمرّ حتى السادس من شباط/ فبراير المُقبل، ينقل عامر مشاهداته وذكرياته في الصين عبر ستّين عملاً تتنوّع بين التخطيطات واللوحات المنجَزة بالألوان المائية.

ترصد أعمال المعرض، تحت عنوان «الصين بعيون هاشمي عامر»، مناظر من طبيعة الصين وعمرانها، مثلما تقترب من خصوصيات المجتمع الصيني، من خلال الإضاءة على لحظاتٍ إنسانية ومشاهد من الحياة اليومية.

إلى جانب الحدائق والمناظر الطبيعية مثل نهر أمور المعروف باسم «نهر التنّين الأسود»، والذي يحتلّ المرتبة الخامسة عشرة بين أطول أنهار العالم، تحضر في اللوحات معالم سياحية ومعابدُ وبناياتٌ مختلفة تعكس خصوصية العمارة الصينية وجمالياتها، وتعود في مجملها إلى التراث الصيني المدرج ضمن قوائم التراث العالمي؛ ومن ذلك «سُور الصين العظيم»، و«معبد السماء».

من بين المعالم التي يرسمها عامر، أيضاً، مقبرة الإمبراطور الأول كين، المعروفة باسم «جيش الطين» في مدينة زيان شمال غرب الصين، والتي بُنيت في العام 246 قبل الميلاد، وتضمّ آلاف التماثيل الطينية التي تحمل ملامح دقيقةً وغير متشابهة، وشارك في إنجازها قرابة سبعمئة ألف شخص بأمر من الإمبراطور الذي أراد أن يأخذ معه جيشاً لمساعدته في الحياة الآخرة. وقد اكتُشف الضريح من قبل مزارعين محليّين عام 1974.

> معالم وأبنية مختلفة تعكس خصوصية البيئة الصينية وجمالياتها

عُرضت الأعمال، التي أنجزها عامر في الصين، في عدّة فضاءات بالجزائر العاصمة؛ من بينها: «المتحف الوطني للزخرفة والمنمنمات وفن الخط»، و«المدرسة العليا للفنون الجميلة»، وستُعرَض لاحقاً في مدينة مُغنية بتلمسان (غرب) وفي مُدن جزائرية أخرى.

وبالنسبة إلى عامر، فإنّ هذه الأعمال تُتيح للزائر، إلى جانب استكشاف حضارة بارزة في الشرق الأدنى، مشاركة تجربته في هذا البلد والاطلاع على قيمة العمل لدى الشعوب المتقدّمة، مثلما يقول في تقديمه للمعرض.

يُذكر أن هاشمي عامر من مواليد مدينة حجّوط بتيبازة قرب الجزائر العاصمة عام 1959، وحصل على شهادة الدراسات العليا من «المدرسة العليا للفنون الجميلة» في العاصمة، ثمّ شهادة في تخصّص المنمنمات من المدرسة نفسها عام 1985، قبل أن يحصل على بكالوريوس في الدراسات العليا من «الأكاديمية المركزية للفنون التطبيقية» ببكين عام 1988، وسبق له أن عرض أعماله في الجزائر وفرنسا وإيران والولايات المتّحدة.

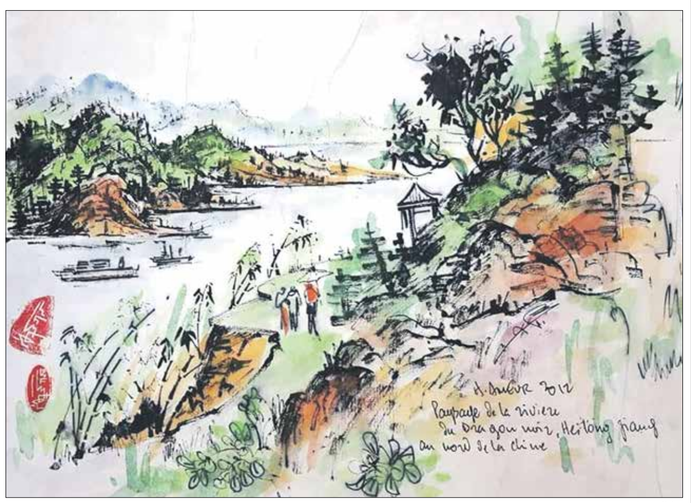

من المعرض

فعاليات

تنظّم **مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية** (سواس) في لندن، عند الخامسة من مساء الإثنين المقبل، نقاشاً مع الفنّان النيجيري البريطاني **بينكا شوبينار** (1962)، يحاوره الأكاديمي **غوس كاسيلي هايفورد**. يستكشف شوبينار الهوية الثقافية والاستعمار وما بعد الاستعمار في السياق المعاصر للعولمة.

واحد وعشرون عنوان المعرض الذي افتتح في «المؤسسة العامة للحي الثقافي» (كتارا) بالدوحة منتصف الشهر الجاري ويتواصل حتى نهايته، وهو نتاج ورشة استمرت عشرة أيام، يضمّ المعرض أعمالاً لواحد وعشرين فناناً منهم **سُهام إسماعيل عزام** من العراق، و**حسّان مناصرة** من الاردن، و**ياسر العلا** (اللوحة) و**اميرة العجي** و**فاطمة الشرشني** و**محمد الحمادي** و**مبارك المالك** من قطر.

يقام عند الخامسة من مساء الخميس المقبل، الثامن والعشرين من الشهر الجاري، حفلٌ افتراضيٌّ للموسيقيَّين التركية **دينيز اوزجليك** (الصورة) والكوسوفي **انور محمدي**، بتنظيم من **مؤسسة اكبانك آرت** في إسطنبول. يؤدّي الفنانان مقطوعات تنتمي إلى موسيقى الجاز والفولك والإيندي، بموثرات اناضولية.

حتى نهاية كانون الثاني/ يناير الجاري، يتواصل معرض **جنوبيات** في «خالِيري نون للفنون» بمدينة الاقصر المصرية، ويضمّ حوالي خمسين عملاً لثلاثة فنانين مصريين هم **اشرف ابو المجد**، و**جمال لطيف**، و**عفاف صلاح الدين** (اللوحة). يوثّق الفنانون الطقوس والمهن والتراث المهدّد بالاندثار في الجنوب المصري.